

لا تفيد القارئ في شيء، فاندتتها معلقة بتوجهاتها وأفكارها وأحلام العودة عند اليهود إلى (أرض الميعاد)، وسوى ذلك لا يجد القارئ فيها أية فكرة جديدة بالتحليل أو الوقوف أو الانتباه، والرواية لا جدة فيها إلا من حيث انقطاعها عن سيرورة التقاليد المعروفة في الرواية الانكليزية (بداية - نزوة - نهاية) والرواية الغربية عموماً التي تعنى بتسجيل حياة الأجيال، ذلك الانقطاع الذي يعود سببه إلى تأثر (جويس) بمناخات الرواية الفرنسية وتوجهاتها الجديدة الذاهبة نحو كسر رتابة السرد وهيمنته، خصوصاً في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين.

ورواية (عوليس) بعد هذا القول لا ترابط فيها، ولا بهجة في حيثياتها أو سياقاتها، ولا متجة يستشعرها القارئ وهو يمضي في قراءتها، بل يشعر أحياناً بأن قلع الضرس أهون من إتمام صفحة من صفحاتها على الرغم من أن قول نقاد جيمس جويس صريح وواضح في هذا المجال: [إن الواجب يقتضي من قارئ جويس أن يدقق في كل تفصيل، وفي كل ترتيب يكتبه]، لكن المفارقة تدهش فعلاً، لأن زيادة الانتباه واليقظة والحذر من الأشرار التي ينصبها جويس تجعل القارئ يدرك مدى سخف هذه الرواية، ومدى حرص كاتبها على تسجيل التفصيلات النافلة واللامجدية التي يفرزها سلوك الشخصيات اليهودية الفاعلة بقوة داخل الحيز الاجتماعي للرواية.

وفي قناعتني، أن الرواية إذا ما ضغطت إلى ربعها فقط، وهو كثير أيضاً، فإن هذا الربع كافٍ للوقوف على رواها، وأهدافها، وقولاتها، وأسلوبها، وهذيان صاحبها، هذا الهذيان الذي امتدحه نقاد جويس كثيراً، وكأنه هو الرواية وقيمتها في آن معاً، علماً أن هذا الهذيان كان مسيئاً جداً لهذا العمل لأنه كان هذياناً مقصوداً وتركيبياً، وذلك من حيث الانقطاعات العديدة والمختلفة التي ولدها (جويس) وصنعها من أجل السخرية أو التندر بسياقات القصة الرئيسية إذ أن هذا الهذيان وتلك الانقطاعات صاروا هما الأساس والغاية الفنية للرواية.

وتكاد قناعتني تكون أكيدة بأن هذيان (جويس) ليس هذياناً وظيفياً من الناحية الفنية، أي لم يكن مداراً بالروح الفني الذي يزيد العمل الأدبي فتنة، وإنما كان هذياناً مصنوعاً صناعة وفقاً للروح المناسب لاستطالات الذات الدائخة من وقع الجوع والتشرد حيناً، ومن وقع الأدمان على المشروبات الكحولية حيناً آخر، فقد عاش (جويس) فترة طويلة من حياته، وقبل ظهور زوجته (نورا) البنت العاملة مستخدمة في فندق، وزواجه منها، عيشة القسوة والشظف والتسكع والبحث عن